قالت العرب

مش باقى مني.. غير شهقة ف نفس مقطوع.. / بافتح لها سكة ما بين رئة..
وضلوع.. / ما بين غبار.. ودموع.. وأنا تحت حجر «المقطم» / ف الدويقة باموت /
أنا.. والعطش.. والجوع.. يئن تحتى التراب / وانا صوتى مش مسموع..

الشهدار
العدد 348 – السنة الرابعة عشرة -الأحد 15 مارس 2026 م الموافق 26 رمضان 1447

«حكاية بلا بداية ولا نهاية»: جدل الدين والعلم فى عالم نجيب محفوظ

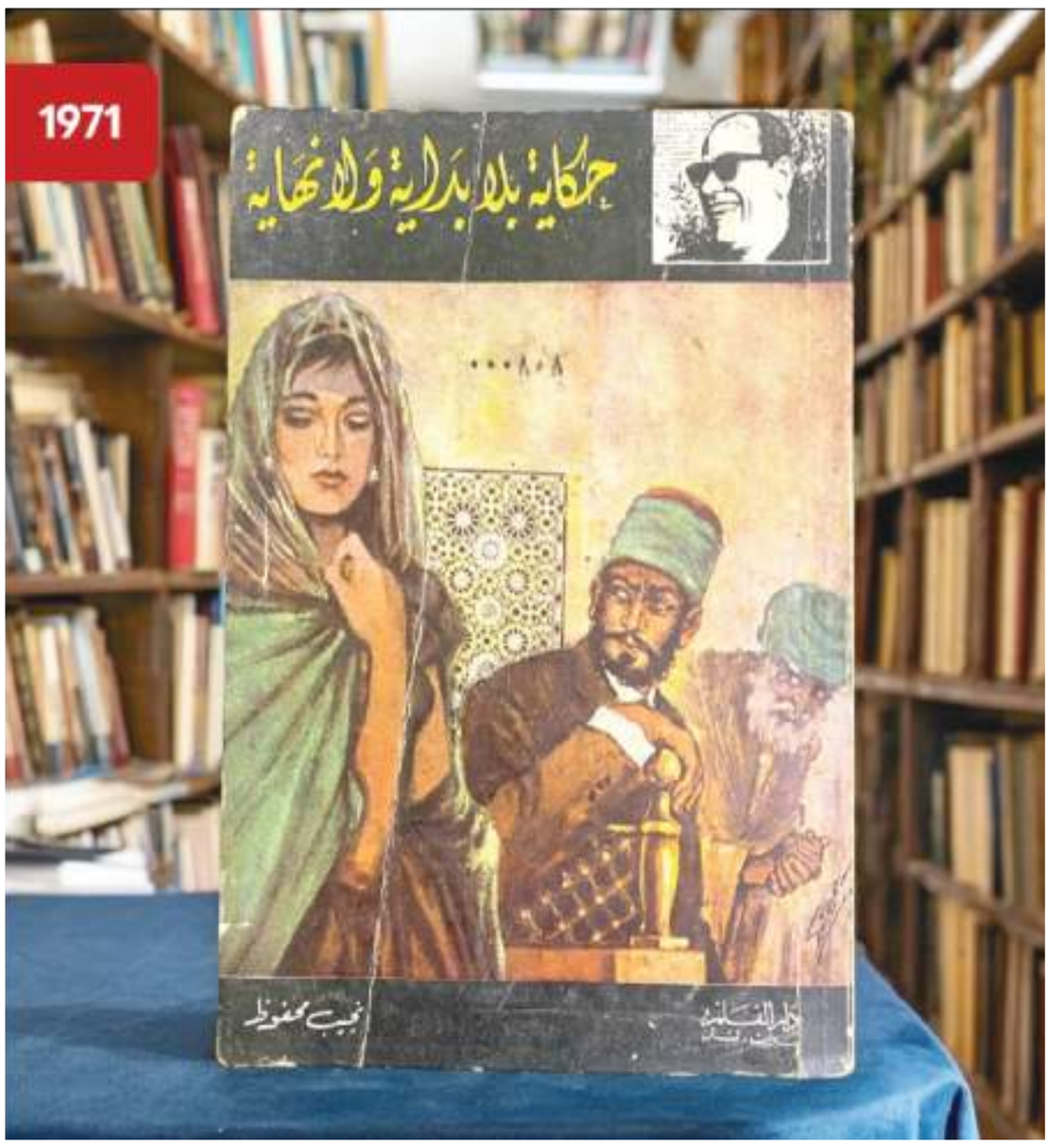

يفتتح نجيب محفوظ مجموعته القصصية «حكاية بلا بداية ولا نهاية» (١٩٧١م) بالقصة التى حملت اسمها، حكاية تمزج بين الدراما المسرحية والنفس القصصي، يغلب فيها عنصر الحوار على عناصر السرد الأخرى. يطرح محفوظ من خلالها قضيته الفكرية، الصراع بين العلم والدين، وما يعترى الطرفين من انحرافات حين يغيب العقل أو تغيب الروح. ينتهى هذا الصراع عند محفوظ إلى حل توافقى يرى ضرورة وجود الطرفين معًا، مع ضرورة ابتعاد التدين عن الخرافات واستغلال حاجة الناس، وأن يتحرر العلم من الغرور والادعاء بقدرته على كشف كل الحقائق.

يدور الصراع بين نقيضين رمزيّين محمود، وريث الطريقة الأكرمية وصاحب النفوذ الروحى الذى يطيعه المريدون طاعة عمياء، وعلي، الشاب المتعلم الذى يسعى إلى تفنيد الخرافات المحيطة بالطريقة وتنقيتها عبر البحث فى الكتب والمخطوطات. يعثر على وثائق تكشف تاريخًا ملتبسًا للعائلة، الأكرمية الجد كان مجرمًا قبل توبته، وعمته تركت دينها وتزوجت من إنجليزي، أما محمود الوريث الحالى فتكشف الأحداث أنه غارق فى الملذات، يعيش حياة الترف والفساد معتمدًا على نذور الفقراء الذين يسحقهم العوز.

يتصاعد التوتر بين الفريقين إلى حافة الاحتراب الدموى فى الحارة، كاد أنصار كل طرف أن يفتكوا بالآخر. غير أن المفاجأة الدرامية الكبرى تأتى حين تتكشف الحقيقة، على ليس إلا ابن محمود من علاقة غير شرعية قديمة مع المدرسة زينب. بهذه الصدمة يكشف محفوظ عن تهاوى الحدود التى رسمها كل طرف لتجريم الآخر، فيدرك الجميع أن الدنس والقداسة لا يفصل بينهما سور عالٍ، وأن الإنسان قد يعبر بينهما فى لحظة ضعف أو صحوة.

يلفت نجيب محفوظ النظر إلى نسبية الخطايا والفضائل، فالجد، رغم كونه مجرمًا فى بداياته، استطاع أن يتوب ويجد طريقًا مستقيمًا، وهو ما كشفت عنه المخطوطات التى كتبها تلاميذه رجل جمع بين الشر والخير، كان قطاع طرق ثم تغلب عليه خيره. أما محمود، فبرغم اعتقاده بنقاء ثوبه الروحي، فإن حياته تكشف عن انغماسه فى الدنس واستغلاله للمريدين، لكن الصراع مع ابنه جعله يكتشف ما كان خافيًا عنه يبحث عن طريق جديد ليتلاءم مع العصر الحديث فأفكاره القديمة بما فيها من خرافات لم تعد صالحة اليوم.

يحضر فى القصة أيضًا الشيخ تغلب الصناديقى بوصفه الحكيم القادر على الجمع بين الطرفين، يعرف ضعف النفس البشرية، ويمثل المرشد الروحى المتزن. يحث محمود أن يتبع وصية سلفه الذى طلب منه أن يبحث عن طريقه الخاص ويرى فى على الرجل الأصلح لوراثة الطريقة إذا ما تزوّد بالحكمة، وأنه قادر على ضخ دماء جديدة فى مسارها يجمع بين التفكير العقلانى والحس الروحي.

لتتبلور رؤية محفوظ لا خلاص من دون التكامل بين الأب والابن، بين الدين والعلم. فالعلاقة بينهما ليست عكسية أو معركة صفرية وإنما هى علاقة تكامل فى بناء الإنسان والعالم.

يواصل محفوظ فى القصة الثانية «حارة العشاق» مناقشة الإشكالية الفلسفية ذاتها، لكن من زاوية نفسية هذه المرة، عبر شخصية عبدالله بما تحمله من حمولة رمزية شاملة. يمرّ عبدالله بعدة مراحل متعاقبة تمثّل تطوّر الوعى الإنسانى وتقلّباته.

تبدأ المرحلة الأولى بعمله فى الأرشيف، يغرق فى رتابة، فى حياة أقرب إلى الوجود البدائي، عمل بلا متعة ولا فسحة للراحة، همه الأول والأخير أن يوفر لقمة العيش. ثم يترقى فى عمله، فيخف العبء الوظيفي، البحث عن الراحة والمتعة، لينتقل إلى عهد القهوة؛ عهد الحياة الحسية، حيث يقع فى حب هنية، وينسجم مع نمط عيش جديد يستمر خمس سنوات.

غير أن الشك يتسلل إلى قلبه، فيطلق زوجته اعتمادًا على حواسه التى أضلته، ليدخل مرحلة جديدة هى مرحلة الزاوية مع الشيخ مروان، الذى يكشف له أنه ظلم زوجته حين طلقها، وأن القلب هو الدليل الحقيقى للاهتداء إلى الحقيقة. يقتنع عبدالله ويدخل فى طور التدين، لكن هذا اليقين لا يلبث أن يتآكل، فيعود الشك بعد عام واحد بعدما يكون أنجب ابنًا أطلق عليه اسم مروان دليلًا على استمرار هذا النمط الفكري.

هنا يظهر عنتر المدرّس، الذى يطرح العقل باعتباره الملاذ الأخير، وأن القلب غير قادر على إصلاح الحياة وأن الحقيقة ترى من خلال العقل فيستعيد عبدالله رشده بعد أن يطلع على الكتب، ويدرك مجددًا حجم الظلم الذى ألحقه بزوجته. ينجب طفل آخر يطلق عليه اسم عنتر فى إشارة إلى استمرار التفكير العقلى كما فعل مع طفله الأول الذى يمثل اليقين القلبي، تقديرًا لدور كلٍّ منهما فى تشكيل وعيه وصناعة حياته الجديدة.

يشكل مروان وعنتر، عبر حضورهما المتوازن فى حياة عبدالله، معادلة الاستقرار التى تفضى إلى حياة أكثر سعادة، توفر له قدرًا من الراحة والأمان، يفسّر كل منهما الجانب الذى يعجز الآخر عن الإحاطة به. غير أن هذا التوازن لا يلبث أن ينهار مع حلول عهد الشك واليقين تحت سلطة مراد عبدالقوي، حين يُلقى القبض على مروان وعنتر معًا من دون تهمة واضحة، ويترك عبدالله وحيدًا فى مواجهة الحيرة، عاجزًا عن اتخاذ قرار حاسم.

تمارس السلطة هنا منطقها المجرد، فتبلغه أن الحقيقة لا تميل إلى كفة بعينها، وأنها تقف عند نسبة خمسين فى المئة بين الشك واليقين، ولا وجود لمرجع خارجي، ولا من يختار نيابة عنه. سلطة مادية لا تعترف بالبعد الإنساني، تفصل بين الحارة وأهلها، ولا تقيم وزنًا لحياة الأفراد، ولا تقدم إجابات جاهزة، تفرض على الإنسان أن يصنع إجاباته بنفسه، ويتحمل تبعات اختياره منفردًا.

وتتجلى هذه الأزمة بوضوح فى علاقة عبدالله بزوجته هنية؛ فعندما شك فيها للمرة الأولى اعتمادًا على الحواس، استطاع القلب/الدين أن يكشف فساد هذا الاعتقاد ويعيدها إلى حياته. وفى المرة الثانية، حين جاء الشك عبر المشاهدة، تولّى العلم تصحيح الخطأ وكشف زيف الظن. أما فى المرة الثالثة، فى زمن الشك الخالص، عجز عبدالله عن اتخاذ قرار نهائي، وظل أسيرًا لشكه، غير قادر على الحسم، بما يعكس مأزق الإنسان حين يُجرّد من أى مرجعية معرفية أو روحية.

يكتسب اسم هنية دلالة رمزية لافتة، يحيل إلى علاقة الإنسان بسعادته الهشّة، تلك السعادة التى كثيرًا ما يبددها المرء بيديه تحت وطأة الأفكار والاعتقادات المتناقضة.

وكما هو شأن نجيب محفوظ فى بناء عالمه الرمزي، تكشف الأسماء فى القصة عن دلالاتها الواضحة: عبدالله هو الإنسان فى عموميته، مروان يمثل الدين/القلب، عنتر يرمز إلى العلم والقوة العقلية، بينما يحيل مراد عبدالقوى إلى السلطة بوصفها قوة عمياء محايدة، لا تنحاز إلا لمنطقها الخاص.

تتحول القصة إلى رحلة رمزية فى صراع الحواس والقلب والعقل، وتبدّل يقين الإنسان بين الدين والعلم والشك.

ويلاحظ أن الطابع الحوارى يهيمن على أغلب قصص المجموعة، وهو أحد الأنماط السردية الشائعة فى قصص نجيب محفوظ، لما يتيحه هذا النمط من قدرة على تعرية الشخصيات من الداخل، وكشف صراعاتها الفكرية والنفسية، وتحويل الحوار إلى أداة فلسفية لا تقل أهمية عن الحدث ذاته. فالحوار عند محفوظ فى القصص هو وسيط لتمرير الأفكار، وتكثيف الدلالة، وتسريع الإيقاع السردي، ويمنح النص طابعًا مسرحيًا يعمق الإحساس بالصراع ويقربه من وعى القارئ.

بقلم: د. عبدالكريم الحجراوي

«البلطجي» يقيم دولة العدل فى «ليالى ألف ليلة»

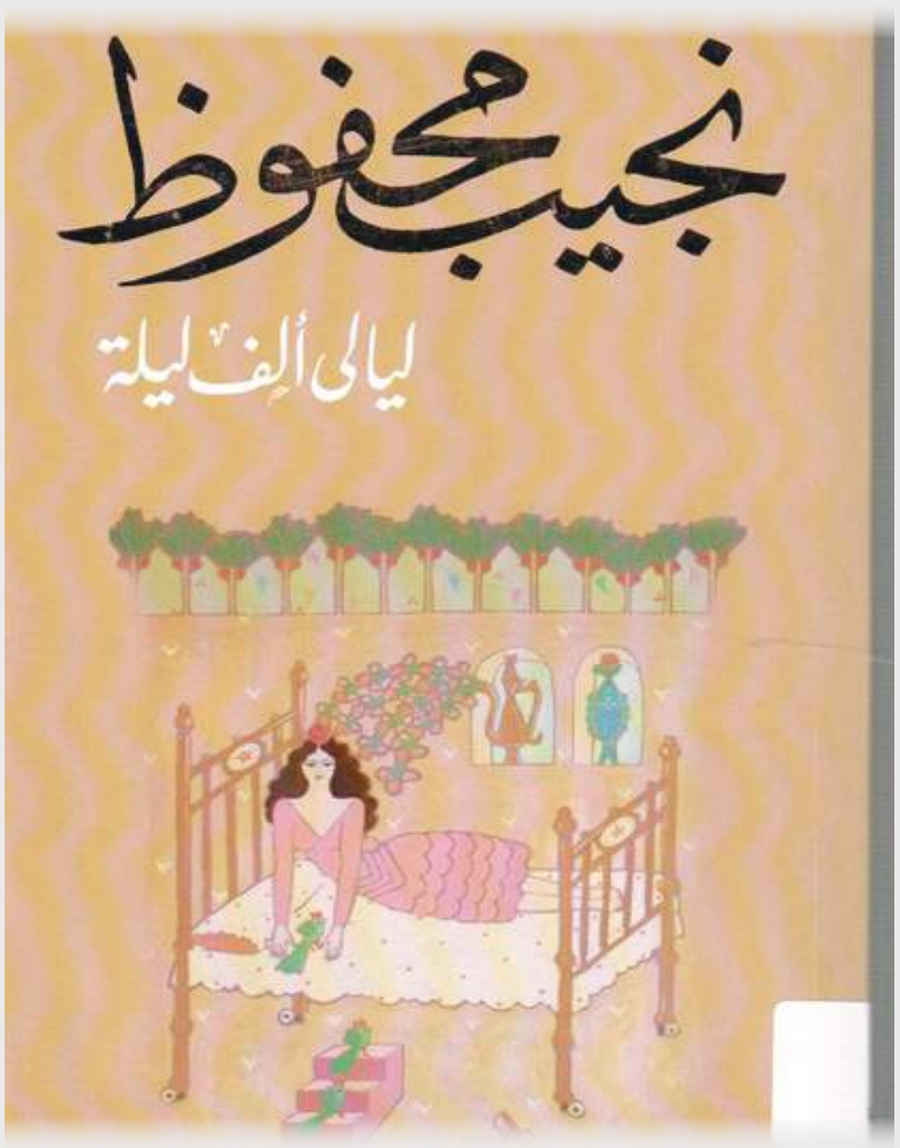

تحتل رواية ليالى ألف ليلة موقعًا فريدًا فى مسار نجيب محفوظ الروائي؛ فهى عمله الوحيد الذى استلهمه مباشرة من عالم الحكايات الشعبية الأشهر. وأكثر رواياته غرابةً وعجائبية، عجائبية ذات جذور شعبية أعاد محفوظ تشكيلها بما يخدم رؤيته الفنية. يحضر فيها الجن والشياطين والملائكة، تتزاح فيها الحدود بين العوالم، يتجاورون فيها فى فضاءات حلمية برزخيّة تتداخل فيها الأسطورة بالحقيقة والخيال بالواقع.

يستعير محفوظ من ألف ليلة وليلة عوالمها وشخصياتها الشهيرة، شهريار، شهرزاد، دنيازاد، معروف الإسكافى، الحمالين، السقاة... وغيرها، يطوع هذا الخيال العجائبى الشعبى ليجعله إطارًا فنيًا يخدم قضيته الأثيرة التى عالجها مرارًا فى أعمال مثل أولاد حارتنا والحرافيش ورحلة ابن فطومة. القضية المتعلقة الحكم والسلطة والبحث عن النموذج العادل، القادر على تحقيق حياة كريمة للإنسان، تيمة مركزية ظل محفوظ يلاحقها بصيغ مختلفة، قبل أن يعيد صياغتها هنا داخل عالم أسطورى شعبى تتشابك فيه الحكاية الشعبية مع التأمل الفلسفي.

ركز محفوظ فى «أولاد حارتنا» على سؤال قدرة الأديان على تحقيق العدالة وإقامة نظام أخلاقى يصلح العالم. أما فى «ليالى ألف ليلة» فيحول اهتمامه إلى آليات تحقيق هذه العدالة، هل تتحقق بالقوة والعنف، أم بالتغير السلمى للسلطة؟ يرصد فيها التناقض الحاد بين الشعارات التى ترفعها الدولة علنًا وما تمارسه سرًا ما ينتج مجتمعًا مشوهًا وعديم الجدوى. يعبر عن هذا الازدواج بوضوح: «عجيبة هذه السلطنة بناسها وعفاريتها ترفع شعار الله وتغوص فى الدنس» (ص٣٨).

فى هذا السياق يظهر الدين أداة صراع على السلطة، تلقى الشرطة القبض على الناس بتهم جاهزة مثل الانضمام إلى الخوارج أو الشيعة، فى استثمار سياسى للدين يعيد إنتاج القمع ولا يهدف إلى تحقيق العدالة وإنما تكريس الظلم.

تبدأ الرواية من حيث تنتهى ليالى ألف ليلة وليلة بقرار شهريار التخلى عن عادة قتل العذارى ظلمًا، بعدما قتل كثير من الصالحين الذين عارضوا جنونه، وترك الذين ينافقونه. ومن هذه الافتتاحية الكاشفة يتبدى المجتمع الذى يحكمه شهريار، سلطة رأسها ملك محتجب عن العالم، يعيش فى عزلة لا يرى فيها شعبه ولا يسمع نبض المدينة، إلا على سبيل التسلية عندما ينزل من قصره متنكرًا ليطوف فى شوارع المدينة كما كان حال هارون الرشيد فى الليالى الأصلية.

فيما تدار شؤون الناس عبر حاكم، ورئيس شرطة، وكاتم سر، وقضاة يتصلون بالمجتمع بصورة مباشرة. هذا البناء السلطوى الهرمى يذكر على نحو لافت بشخصية الجبلاوى فى أولاد حارتنا، قوة عليا حاضرة وغائبة فى آن، تمارس السلطة من وراء ستار، فيما يتولى أعوانها مواجهة الناس وتوجيه حياتهم اليومية. وهو ما يفعله شهريار فمع كل أزمة تحدث يقوم بإقالة الحاكم وأعوانه وتعيين آخرين مكانهم للقضاء على الفتنة والجرائم التى تجرى فى المجتمع رغبة فى تحقيق الاستقرار.

يمثل عالم الرواية مجتمعًا شعبيًا رمزيًا يبحث فيه محفوظ عن الوسيلة الأنجع للقضاء على الظلم والنظام السياسى الأفضل للحكم. فى بدايات الأحداث يعتمد التغيير على العنف عبر قتل الحكام أو رؤساء الشرطة الفاسدين، فى إشارة إلى التصور الأولى بأن إزالة الظلم لا تتم إلا بقطع رأس السلطة. هذا التصور يتطور تدريجيًا، إذ ينتقل البطل من فكرة العقاب إلى التفكير فى التغير السلمى ما دام الإصلاح ممكنًا. فيعفو المنتقم بعدما عرى السلطة الحاكمة معتقدًا أنهم طالما أدركوا ضعفهم وانفضاح سرهم سيستحون من الظلم، فالحياء من أهم الصفات التى يجب أن تكون فى الحكام «ويل للناس من حاكم مجنون لا حياء له» وضمانة لتحقيق العدل.

تستمرّ الروايةُ فى البحث عن نموذج الحكم العادل إلى أن تصل فى نهايتها إلى الحل الأمثل، اختيار الحاكم من أبناء الشعب. ويظهر ذلك فى شخصية معروف الإسكافى الذى أحبه الناس لعدله وقربه منهم، فاختاره السلطان ليكون حاكمًا، فيتحول الحكم إلى تجربة ديمقراطية رضى عنها الشعب

- ألا ترى يا مولاى أن حكم الحى أصبح بيد نفرٍ لا خبرة لهم؟

- دعنا نقدم تجربة جديدة (ص٢٤٦).

ليبقى السؤال المتعلق بمصير السلطان شهريار، ذلك الحاكم القاتل الذى نجح على رغم ماضيه الدموى أن يحقق قدرا من العدل فى آخر أيامه، لكنه ما زال مثقلا بوزر دماء الأبرياء. هنا يدفع نجيب محفوظ شخصيته إلى موقع تحمل المسئولية السياسية والأخلاقية، فيجعل شهريار يتنحى عن الحكم بإرادته الحرة، مؤكدًا أن العدالة لا تكتمل دون الاعتراف بالخطأ وتحمل تبعاته.

تأتى هذه الرؤية مغايرة تمامًا لنموذج الجبلاوى فى أولاد حارتنا، فهناك تظل السلطة العليا محتجبة، تستمر عبر اختيار نوابها، لا ينتهى حضورها إلا بالموت. أما فى ليالى ألف ليلة، شهريار يقدم قرارًا شجاعًا نادرًا فى عالم الحكام بالتخلى عن الحكم والسعى فى طريق الخلاص الإنساني.

- شهريار السلطان يجب أن يذهب بما فقد من أهليه، أما الإنسان فعليه أن يجد خلاصه.

- شهرزاد: إنك تعرض المدينة لأهوال.

- شهريار: بل إنى أفتح لها باب النقاء، وأهيم على وجهى باحثًا عن خلاصي. (ص٢٨٩)

لا يغفل محفوظ فى الراوية إبراز الدور الروحى للدين فى تهذيب الإنسان وإصلاح العالم الداخلي، يتجسد ذلك فى شخصية الشيخ عبدالله البلخي، الصوفى رمانة الميزان فى عالم موبوء بالفساد والاضطراب. فكلما ملأ الشك القلوب، أعاد البلخى للكون يقينه وانضباطه، فحضوره نوعًا من الاستقرار الروحى الذى يمنع انهيار العالم فى العبث

وهذه الشخصية ليست غريبة عن عالم محفوظ، ولها نظائر فى عدد من أعماله، النموذج الصوفى الذى ينفذ إلى الداخل ويهذب الإنسان من جذوره ولا يهتم بالشعارات والقشور.

يرسم محفوظ فى ليالى ألف ليلة مجموعة من الشخصيات ذات حمولة فلسفية ورمزية تكشف أعماق النفس البشرية وتقلباتها. وتأتى شخصية جمصة البلطجى واحدة من أبرز هذه النماذج، صورة حية لتنازع الخير والشر داخل الإنسان. يبدأ جمصة تلميذًا للشيخ البلخي، يسلك طريق الصلاح، ثم يتركه للعمل فى الشرطة فيتدرج فى المناصب حتى يصبح مسئولًا عنها، وهناك يستفحل ظلمه وفساده إلى أن يلقى مصرعه. غير أن العالم العجائبى للرواية يمنحه حياة جديدة بفضل الجن، فينذر نفسه لخدمة الخير، ينتقم من الحكام الفاسدين وأعوانهم بالقتل أولًا، قبل أن يتراجع عن العنف ويختار طريق العفو والمسامحة.

ومع اعتلاء معروف الإسكافى الحكم، يختار جمصة ليكون رئيسًا للشرطة، يعود إليها بروح جديدة، هى الأقدر على مواجهة الشر من الداخل لأنه خبر سبله ودهاليزه وعرف مكائده قبل أن يتطهر منه. فجمصة إنسان سقط، ثم نهض، وتحول سقوطه ذاته إلى معرفة تستخدم فى نصرة الخير وإفساد مخططات الشر.

ويقدم فى شخصية فاضل صنعان نموذجًا للشاب الذى يبدو فاضلًا فى الظاهر، لكن هذا الفضل كما يشير اسمه نفسه فضل مصنوع. معروف بين الناس بالخير ومساعدة الضعفاء وكراهية الظلم، هذا السلوك لم يكن نابعًا من عمق أخلاقى حقيقي، وإنما نتاج ظرف لم يتح له فيه ممارسة القوة. وما إن امتلك القدرة على الإفلات من العقاب، ظهر معدنه الحقيقي، منحه الجن طاقية الإخفاء، فانطلق يسرق ويقتل ويعبث فى مصائر الناس، كاشفًا بذلك أن الاختبار الحقيقى للأخلاق هو القدرة على الظلم، وأن الفضيلة التى لا تمر بتجربة السلطة ربما لا تكون سوى قناع هش ينهار عند أول امتحان

ومن الشخصيات التى يرسمها محفوظ بفرادة لافتة سحلول، الرجل الذى يعيش بين الناس متخفيًا فى هيئة بشرية، بينما هو فى الحقيقة ملك الموت، فى دلالة واضحة على حضور القدر بين البشر.

وفى الأخير، هناك رمزية السندباد الذى طاف البلاد وعاد بالحكمة والسكينة، ثم يقرر أن يعود إلى الترحال من جديد، مؤكدًا على حتمية الاستكشاف وألا يتوقف الإنسان عن البحث والسفر ويظل فى حالة سعى دائم نحو المعرفة والتجدد.

بقلم: د. عبدالكريم الحجراوي